# الفصل السابع

## التعليم في دور الكتب

كان لعناية المسلمين بانشاء دور الكتب والمكتبات أثر كبير فى تيسير وسائل الثقافة والتعلم ، وتشجيع الطلاب على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى • وقد انتشرت المكتبات فى الاسلام انتشارا عظيما يدعو الى الفخر والاعجاب فقد كان فى معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور العلم ودور الحكمة مكتبات كبيرة مزودة بالكتب المختلفة والمراجع النادرة ليرجع اليها الطلبة والعلماء والقراء والنساخ فى أى وقت شاءوا •

وقد ذكر المقريزى أن المدرسة الفاضلية ألحقت بها خزانة عظيمة للكتب بلغ عدد مابها [ ١٠٠ر٠٠٠ كتاب ] وهذا كان فى عصر لم تخترع فيه المطابع والطباعة • وأشار ابن القفطى الى مكتبة كان عدد مااشتملت عليه من الكتب فى الهندسة وعلم الفلك ٦٥٠٠ كتاب كما كان بها كرة أرضية لبطلميوس وكرة أخرى لأبى الحسن الصوفى اشترينا بمبلغ ٣٠٠٠ دينار • وهـذا كله يدل على تشجيع الاسـلام والمسلمين للعلم والبحث العلمى منذ قرون طويلة •

وقد ذكر ياقوت فى كتابه معجم الأدباء أنه كان بكركر(١) ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون صنوف العلم وتقدم لهم الكتب وينفق عليهم من مال على بن يحيى • فهذه مكتبة كان الطلاب يجدون فيها الكتاب والمسكن والطعام وهى كالمدرسة ولا ينقصها الا المدرس •

كما ذكر ياقوت أيضا أنه كان فى مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دور للكتب منظمة وتشتمل احداها على ١٢٠٠٠ مجلد •

وكان من أشهر دور الكتب فى الأندلس خزانة الحكم الثانى التى بلغ عدد ما كان بها من الكتب ٤٠٠٠٠٠ كتاب • وقد تنافس المسلمون بحماسة لا نظير لها فى انشاء دور عامة للكتب ، ولم تسلم النساء من حب اقتناء الكتب وجمعها اذ كثر بينهن انشاء المكتبات ولا نبالغ اذا قلنا ان العبيد لم يسلموا من العدوى فكان لبعضهم أثر كبير فى انشاء المكتبات

---

(١) قرية قريبة من بغداد •

واقتناء الكتب وتزويدها بها مع انها كانت غالية الثمن لانها مخطوطات كتبت باليد · ولغلو أثمانها كان لا يقتنيها الا الأغنياء ·

ولنشر العلم بين الفقراء المتعطشين الراغبين فيه أنشئت دور الكتب وفتحت للجميع وكانت بمثابة معاهد دينية وأدبية وعلمية · وكان بعض الاغنيـاء من المسلمين ينشـئون المكتبات العامة ويعدونها اعدادا كاملا ويسمحون للطلبة بالانتفاع بها والاطلاع فيها والاقامة بها وتناول الطعام بالمجان فيها ·

فالمكتبات الاسلامية ثلاثة أنواع :

( أ ) مكتبات عامة ·

(ب) مكتبات بين العامة والخاصة ·

(جـ) مكتبات خاصة ·

ولنتكلم عن كل منها فنقول :

**( أ ) المكتبات العامة :**

هى التى أنشأتها الدولة بالمساجد والجوامع والمدارس لتساعد فى دراسة العلوم والآداب والمعارف ومنها :

**١ ـ بيت الحكمة :**

هو بيت أسسه الخليفة هارون الرشيد ببغداد وعنى به المأمـون لحبه للعلوم والآداب ولا عجب فقد كان واسع الثقافة حر التفكير وكان فى مكتبة بيت الحكمة كثير من الكتب والمخطوطات بلغات مختلفة منها الكتب القبطية واليونانية القديمة والهندية والفارسية والآرامية · وقد ترجمت الى اللغة العربية فكانت تراثا خالدا ·

وكان بيت الحكمة يعد أول مكتبة عامة لها شأن كبير فى العـالم الاسلامى وأول جامعة اسلامية وأول مؤسسة دينية أدبية علمية فلسفية اجتمع فيها العلماء البارزون وقصدها الطلاب المسلمون وأعطت الطلبة الفرصة فى التزود بالدراسات والتوسـع فى الثقافة الأدبية والعلمية والطبية والفلسفية ·

وكان عصر المأمون أزهى العصور الثقافية لبيت الحكمة فقد كان المأمون مثقفا ثقافة عالية أديبا واسع الاطلاع ذا ذوق أدبى نادر فمنحه كل عنايته ورعايته ·

### ٢ ـ دار الحكمة بالقاهرة :

وقد أنشأها بالقاهرة الحاكم بأمر الله الفاطمى فى يوم السبت العاشر من جمادي الآخرة سنة ٣٩٥ هـ · وكانت تلك الدار معهدا دراسيا عظيما للدراسة والتعلم والقراءة والاطلاع ونسخ الكتب · أعدها الحاكم بأمر الله اعدادا كاملا وزودها بكثير من الكتب النفيسة والمخطوطات النادرة فى الدين ، والعلوم والآداب وأمدها بما يحتاج اليه الناسخون من أقلام ومحابر وأوراق · وجلس فيها الفقهاء والقراء وعلماء النحو واللغة والاطباء وعلماء الفلك وعين للأساتذة مرتبات كبيرة وللخدم والقراشين أجورا مناسبة وأمر بفتح أبوابها لكل من يشاء الانتفاع بها والاستمتاع بما يلقى فيها من محاضرات ومناقشات علمية وأدبية ودينية واستمرت دار الحكمة بالقاهرة مفتوحة الأبواب حتى أوائل القرن السادس الهجرى ·

وقد ذكر المقريزى فى خططه(١) أن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير الا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت الستور على جميع أبوابها وممراتها · وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم كلفوا خدمتها ·

### ٣ ـ دار العلم أو خزانة الكتب لسابور :

وقد أسسها أبو نصر سابور بن أردشير سنة ٣٨٣ هـ واشتاع لهـا دارا بالكرخ وبناها أحسن بناء ، وسماها دار العلم ووقف عليهـا أوقافا للانفاق منها على دار العلم · وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان (٢) أنه كان بها ١٠٤٠٠ مجلد فى العلوم المختلفة ·

وكانت دار العلم مركزا ثقافيا للبحث والدراسة والاطلاع والمناظرات والمحاورات والمجادلات يجتمع فيها الباحثون والمتناظرون والمحـاضرون والعلماء والأدباء · وكان الفيلسوف الكبير أبو العلاء المعرى لا يتركها ولا ينقطع عنها اذا ذهب الى بغداد ·

وكان معظم العلماء والأدباء الفلاسفة يوقفون ما عندهم من النسخ والكتب التى يملكونها أو يؤلفونها لدار العلم ببغداد لتخليدها ·

---

(١) جـ ١ ص ٤٥٨ ·

(٢) جـ ٢ ص ٣٤٢ ·

**٤ ـ مكتبات المدارس :**

حينما دعت الحاجة الى انشاء المدارس الاسلامية فى مصر وسورية والعراق وخراسان وغيرها من الامبراطورية الاسلامية كان فى كل مدرسة مكتبة مزودة بكثير من الكتب الكبيرة والصغيرة فى مختلف العلوم · وأشهر المكتبات المدرسية : مكتبة المدرسة النظامية ببغداد التى أنشأها نظام الملك وزودها بكثير من الكتب الثمينة والمخطوطات النادرة ومنها كتاب « غريب الحديث » لابراهيم الحزمى فى عشرة مجلدات · وقد ظلت المدرسة النظامية موضع عناية الخلفاء والعظماء كما قلنا ·

**( ب ) المكتبات التى بين العامة والخاصة :**

ومن المكتبات التى بين العامة والخاصة مكتبات غنية عظيمة كان يملكها الخلفاء والملوك ومنها مكتبة الناصر لدين الله ومكتبة المعتصم بالله ومكتبة الفاطميين التى أنشـئوها بالقاهرة ونافسوا بها خلفاء بغـداد وجعلوها فى القصر الفاطمى · ويقال انها كانت من عجائب الدنيا ولم يكن فى جميع البلاد الاسلامية دار كتب أعظم منها· وكان بها ١ر٦٠٠ر٠٠٠ كتاب وقيل ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ كتاب فى الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك وعلم الفلك والروحانيات والكيمياء ·

**(ج) ومن المكتبات الخاصة** التى أنشاها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص مـكتبة الفتح بن خاقان ومـكتبة جمال الدين القفطى ومـكتبة عماد الدين الأصفهانى ·

وكما اهتم المسلمون بالكتب واقتنائها اهتموا بدور الكتب وخزائنها وحرصوا عليهـا وقدروها حق قدرها وكتبوا كثيرا عن أثرها فى تهذيب العقول وبث البطولة فى النفوس وتزويد القراء بالأفكار والآراء ·

وقد هجم جنود من خراسان على دار ابن العميد وسرقوا ما فيها من أثاث وخزائن ولكنه لم يفكر الا فى خزانة كتبه فقد كانت ثمينة ، بها كثير من الكتب العلمية والأدبية والدينية تبلغ مائة حمل وزيادة فلما رأى ابن العميد ابن مسكويه خازن كتبه سأله عنها فأجاب : هى بحالها لم تمسها يد فسرى عن ابن العميد وقال لابن مسكويه : أشهد انك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض وأما هذه الخزانة فهى التى لا عوض لها ·

**تقدير المسلمين للكتب والمكتبات ·**

كانت الكتب غالية الثمن فى العصور الاسلامية القديمة لأنها مخطوطات يكتبها الناسخون الذين يحسنون الكتابة باليد ويعرفون بالدقة فى النقل والأمانة فى العمل ؛ فكان لا يقتنيها الا الأغنياء القادرون على شرائها من المسلمين · وكان المسلمون الأثرياء فى العصور الماضية يقومون بتعيين ناسخين فى المكتبات لنسخ الكتب التى يريدونها بأجر سخى فنفعوا العلم والأدب بما نقل لهم من الكتب النفيسة · وكان النساخ يتبادلون العمل نهارا وليلا بحيث لا ينقطع النسخ فى أى وقت من أوقات النهار أو الليل · وهذا أكبر دليل على تقدير المسلمين للعلوم والآداب · وكان المأمون يعطى حنين بن أسحق من الذهب زنة ماينقله من الكتب الى اللغة العربية مثلا بمثل · وقد عنى الواثق عناية كبيرة بالمترجمين الذين نقلوا الكتب الأجنبية الى اللغة العربية ·

وكان بمكتبة بنى عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخا ينسخون الكتب بأيديهم ·

وكانت المكتبات وحوانيت الوراقين فى أوائل العصر العباسى تتخذ للتجارة فى الكتب وبيعها وشرائها كما تتخذ للقراءة والاطلاع والمناقشات العلمية والأدبية والدينية بين العلماء والأدباء والفقهاء الذين يجتمعون فيها كل يوم للبحث والدراسة والجدل والنقاش ·

وقد تعددت تلك المكتبات التجارية فى عواصم البلاد الاسلامية وكثرت كثرة كبيرة تدل على اقبال المسلمين على العلوم والآداب والبحوث الدينية ونشر الثقافة والتربية والتعليم فى جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية ·

وكان بمصر فى أيام الطولونيين والاخشيديين سوق كبيرة لحوانيت الوراقين لبيع الكتب ونسخها والمناظرات والمناقشات أحيانا ·

وكان بائعو الكتب فى معظم الأحيان مثقفين ثقافة علمية أدبية ودينية يشاركون العلماء والأدباء والفقهاء فى بحثهم واطلاعهم وتأليفهم ونقاشهم · ومن الوراقين الذين شغلوا أنفسهم بالتأليف ابن النديم صاحب كتاب الفهرست وياقوت الحموى مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان ·

وكان الوارقون يقومون قبل اختراع الطباعة بنسخ الكتب ونقلها وبيعها لمن يريدها · وكان الجاحظ يكترى حوانيت الوراقين ويبيت فيها

للنظـر والبحث والقراءة والاطلاع على مافيها من كتب متنـوعة • وكان الطلبة والعلماء يقبلون عليها كل الاقبال ويقرءون ويشتركون فى المناقشات والمناظرات وانشاء الاشعار •

وكان فى مصر سـوق لحوانيت الكتب بين الصاغة والمدرسـة الصالحية • وقبلها كان هناك سوق للكتب تجاه الناحية الشرقية من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة • وقد أنشد بعض الشعراء قديما :

مجالسة السـوق مذمومة ومنهـا مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سـوق الجيـاد وسوق السـلاح وسوق الكتب
فهاتيك آلة أهـل الوغى وهاتيك آلة أهل الأدب

وكان فى بغداد فى القرن السادس الهجرى سوق كبيرة للوراقين وتجار الكتب هى مجلس العلماء والأدباء والشعراء •

وكان لحوانيت الوراقين أثر علمى وأدبى وعقلى فيمن يتصلون بهم من أسرهم وغيرها • ومن أمثلة تأثير البيئة العلمية والأدبية فى الأسرة زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق التاجر فى الكتب الذى كان يعيش فى وادى الحمى بالقرب من غرناطة فقد عرفتا بسعة الاطلاع والتبحر فى العلوم والآداب وكانتا على قدم المساواة مع الأساتذة والعلماء والأدباء فى ذلك العصر •

ولم تكن الثقافة العلمية والأدبية والدينية مقصورة على الأساتذة والطلاب وأصحاب المكتبات بل كانت عامة بين المسلمين فقد انتقل النشاط العلمى والأدبى والثقافى من حوانيت بائعى الكتب الى حوانيت البيـع والشراء •

قيل ان شابا رحل وسافر الى بغداد كى يطلب العلم بها • فقرأ ما شاء الله أن يقرأ ودرس ما أراد أن يدرس ثم أراد العودة الى أهله ووطنه • فاستأجر دابة ليركبها ويسافر بها من بغداد الى بلده ولكنه قبل أن يركب وقف ينتظر قليلا حتى يشترى صاحب الدابة شيئا من الأشياء من حانوت أحد التجار فسمع الطالب الشاب نقاشا علميا يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت التجارية القريبة فأعجب الطالب كل الاعجاب بهذا النقاش بين التاجرين وتأثر منه كل التأثر وطلب من صاحب الدابة أن يعيده ثانية الى محل اقامته ببغداد وقال له : ان بلدا باعته فى هـذه المنزلة من العلم لا ينبغى أن يرحل عنه •

فالثقافة بين المسلمين كانت عامة والعلم كان منتشرا وسوق الأدب

كانت رائجة وكنت تجد علماء وأدباء ومثقفين بين العـــامة من المسلمين كالتجار وغيرهم وكان للكتب لدى المسلمين منزلة كبيرة وتقدير عظيم فقد حدث أن أرسل أحد الخلفاء ليطلب عالما من العلماء ليسامره ويتحدث معه فلما جاء الخادم الى العالم وجده جالسا وحوله كثير من الكتب يقرؤها ويطلع عليها ٠

فقال له الخادم : ان أمير المؤمنين يستدعيك ٠

قال العالم : قل له ٠٠ عندى قوم من الحكماء أحادثهم ٠ فاذا فرغت منهم حضرت اليه ٠

فلما عاد الخـــادم الى الخليفـــة وأخبره بذلك قال له : ويحك : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟

قال الخادم : والله ياأمير المؤمنين ماكان عنده أحد ٠

قال الخليفة : فأحضره الساعة كيف كان ٠

فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟

قال العالم : يا أمير المؤمنين :

هم جلساء ما نمل حديثهم ... أمينون مأمونون غيبا ومشهدا
اذا ماخلونا كان خير حديثهم ... معينا على نفى الهموم مؤيدا
يفيدوننا من علمهم علم مامضى ... وعقلا وتأديبا ورأيا وسؤددا
فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة ... ولا نتقى منهم لسانا ولا يدا
فان قلت: أموات فلست بكاذب ... وان قلت : أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك الى الكتب فأعجب به ولم ينكر عليه تأخره ٠

وقال الجاحظ فى تقدير ما فى الكتاب من العلوم والآداب والمعارف والآراء والتجارب والافكار : « لا أعلم ما جاء فى حداثة سنه ولا قرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع بين السير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة ما يجمعه كتاب ٠ ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارته رغبا وان شئت لزمك لزوم الظل وكان منك كما كان بعضك » (١) ٠

---

(١) المحاسن والاضداد ص ٢ ٠

« والكتاب صامت ماأسكته وبليغ مااستنطقته مسامر لا يبتديك فى حال شغلك ويدعوك فى أوقات نشاطك ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه . وهو جليس لا يطريك وصديق لا يغريك ورفيق لا يملك ولا يخدعك بالنفاق ولا يحتال لك بالكذب » (١) .

وكان المسلمون ـ وما زالوا ـ يقدرون الكتب كل التقدير ويعجبون بها كل الاعجاب فقد اعتكف محمد بن عبد الملك الزيات فترة من الزمن ونوى الجاحظ أن يزوره ، فى بيته وفكر فى شىء يهديه اليه فلم يرقه شىء كما راقه كتاب سيبويه وتسلم ابن الزيات الهدية قائلا للجاحظ : والله ما أهديت لى شيئا أحب الى منه .

وكان علماء المسلمين يفضلون الجلوس فى مكتباتهم الغنية بالكتب للقراءة والاطلاع على أن يتولوا أعظم المناصب والمراكز لدى الولاة والحكام . وكانوا يرسلون من يجوبون البلاد لشراء الكتب العلمية والأدبية من البلاد الأجنبية ليزودوا مكتباتهم بالكتب النادرة والنفيسة والجديدة .

وقد سمع الحكم صاحب الاندلس بكتاب الاغانى فارسل الى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب فبعث اليه نسخة منه .

وكان وجود المكتبة بالبيت يعد متمما لتأثيثه وزينته ولو لم يكن صاحب البيت مطلعا عالما . فقد روى المقـــريزى فى نفح الطيب (٢) عن الحضرمى أحد علماء الأندلس انه قال : أقمت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب به لى بطلبه اعتناء الى أن وقع هو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة على أن بلغ فوق حده فقلت للمنادى : أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى وصل ثمنه الى ما لا يساويه فأرانى شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه فقلت له : أعز الله مولانا الفقيه ، ان كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده .

فقال لى : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ولكنى أنشأت خزانة كتب لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بارتفاع ثمنه .

وكان المسلمون فى العصور الذهبية للاســـلام مثقفين يعنون عناية

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) ج ١ ص ٢١٨ .

كبيرة بدور الكتب العامة فى القاهرة وبغداد وقرطبة وشيراز وغيرها من البلاد الاسلامية • وكان فى تلك الدور حجر للاطلاع وحجر للنسخ وقاعات للمحاضرات وحلقات الدراسة وحجرات للموسيقا لتجديد نشاط القراء • وأثثت تلك الحجرات بأثاث فخم مريح وفرشت أرضها بالسجاجيد والبسط والحصر ووضعت على الأبواب والنوافذ ستائر جميلة وكانت الكتب فى المكتبات الاسلامية توزع فى الحجرات على حسب موضوعاتها •

وقد كتب ابن سينا يصف مكتبة السامانيين التى انتفع بها فى بخارى : « دخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض فى بيت منها كتب العربية والشعر وفى آخر الفقه وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد » •

وكانت المكتبات غنية بالكتب مملوءة بكثير من الذخائر ولها فهارس منظمة • ويحكى ابن سينا انه رأى من الكتب فى مكتبة السامانيين مالم يقع اسمه قط الى كثير من الناس وما كان رآه من قبل ولا رآه أيضا من بعد •

وكانت المكتبات مرتبة ترتيبا حسنا وفهارسها منظمة تنظيما دقيقا كى يسهل الحصول على مافيها من كتب والانتفاع بها من غير تعب •

وكان فى كل مكتبة أمين خاص بها ونساخون لنسخ الكتب ومترجمون للترجمة ومجلدون للتجليد ومناولون لتقديم الكتب للراغبين فى القراءة •

وكان أمناء المكتبات يختارون من العلماء والأدباء والمؤلفين المشهورين والأساتذة المثقفين الذين يستطيعون دراسة الكتب والحكم عليها مثل : سهل بن هارون وابن مسكوية وأبى يوسف الاسفراييني •

وفى أرقى الدول الآن يعد أمين المكتبة مرجعا للطلاب والأساتذة كما كان أمناء المكتبات فى عصر الدولة العباسية •